الفصل الأول

نضال مصر ضد الهكسوس

كان وقوع مصر تحت احتلال الهكسوس منعطفاً خطيراً فى تاريخها بل وفى تاريخ العالم القديم .. فقد كان أمرًا مؤلمًا وقاسيًا إلى أقصى مدى أن تجد مصر نفسها وهى تلك الأمة ذات التاريخ التليد والماضى العريق والحضارة الرفيعة فريسة لمحتل بربرى همجى جاء من آسيا ليغزوها فى فترة من فترات الضعف والاضطراب للمرة الأولى فى تاريخها .. وقد عانى المصريون كثيرًا من هذا الغزو الذى اضطهدهم وأذلهم وأفقدهم كبرياءهم وثقتهم فى أنفسهم .. ومن ثم فإن حرب التحرير التى خاضها المصريون ضد الغزاة الأسيويين لم تكن مجرد معارك حربية عادية ، بل كانت معارك تاريخية حاسمة لاستعادة الكرامة المصرية والكبرياء الوطنى وتخليص البلاد من محتل غاشم جثم على صدرها لأكثر من مائة عام.

من هم الهكسوس ؟ ..

مما لا شك فيه أن ظهور الهكسوس فى التاريخ المصرى يعد من الأمور التى أثارت جدلاً واسعا بين المؤرخين ، حتى أن مسماهم نفسه فى المصادر المصرية يعد من القضايا التى تعددت فيها وجهات النظر التاريخية ، فقد ورد عن المؤرخ المصرى الشهير « مانيتو » أن كلمة الهكسوس تعنى « الملوك الرعاة » ، كما يحدثنا المؤرخ اليهودى « يوسف بن متى » بأن كلمة الهكسوس تعنى « الأسرى الرعاة » ، وقد اتفقت الغالبية العظمى من علماء المصريات على أن كلمة هكسوس مشتقة من غير شك من المصطلح المصرى القديم « حقاو – خاسوت » أى « حكام البلاد الأجنبية » الذى كان يعنى منذ عصر الدولة الوسطى « مشايخ البدو ».

وقد تنوعت آراء المؤرخين حول الأصل العرقى والموطن الأصلى للهكسوس ، فهناك من رأى أنهم من الشعوب الآرية التى كانت تسكن وسط آسيا ، وهناك من رأى أنهم ساميين قد استوطنوا فى كنعان (فلسطين) قبل دخولهم مصر. ويبدو أن أقرب التفسيرات التاريخية للصواب فى هذا السياق يتمثل فى أن الهكسوس كانوا مجموعة من الشعوب التى سكنت مناطق

آسيا الغربية ، والتى اضطرت أن تهاجر من أوطانها تحت ضغط الشعوب القادمة من هضبة أرمينيا والذين عرفوا فى التاريخ باسم قبائل الحوريين ، واستقروا فى مناطق نهر الفرات الشمالية حوالى عام ٢٠٠٠ ق. م. ولقد أدت غارة الحوريين على مناطق شمال سوريا إلى نشر الفزع والرعب فى سكان سوريا وكنعان (فلسطين) ، فهرب الكثير منهم واندفعوا نحو الجنوب حتى وصلوا إلى مصر .. ومن ثم فإن الدلائل التاريخية كانت تشير إلى أن الهكسوس لم ينتموا إلى جنس واحد ، بل كانوا خليطاً من الآريين والساميين الذين أصبح الهدف الرئيس لهم الدخول إلى مصر للاستيطان فى أرضها بأى شكل من الأشكال.

دخول الهكسوس مصر ..

من أكثر الحقائق التاريخية الجلية لدى مؤرخى مصر القديمة أنه لم يحمل المصريون كماً من البغض والحقد والكراهية فى تاريخهم كما حملوا للغزاة الهكسوس ، وذلك فيما تشير الوثائق والمصادر التاريخية .. ويشير المؤرخ اليهودى « يوسف بن متى » نقلاً عن المؤرخ المصرى « مانيتو » إلى أن دخول الهكسوس إلى مصر إنما كان فى عهد الملك « توتيمايوس » (ددو – موسى) ، وهو الملك السابع والثلاثين من ملوك الأسرة الثالثة عشرة فى بردية تورين. ويحدثنا « مانيتو » عن غزو الهكسوس لمصر بعبارات تتسم بالألم والكراهية لهذه الفاجعة الكبرى فى تاريخ مصر قائلاً : « فى عهد الملك توتيمايوس (تيمايوس) لسبب لا أعرفه حلت بنا ضربة من الرب ، وفجأة تقدم فى ثقة بالنصر غزاة من إقليم الشرق من جنس غامض إلى أرضنا ، واستطاعوا بالقوة أن يتملكوها فى سهولة دون أن يضربوا ضربة واحدة ، ولما تغلبوا على حكام الأرض أحرقوا مدننا بغير رحمة ، وقوضوا أرض معابد الآلهة وعاملوا المواطنين بعدوان قاس ، فذبحوا بعضهم ، وساقوا زوجات آخرين من أزواجهم ، وأخذوا أطفالهم إلى العبودية ، وأخيراً عينوا من بينهم واحداً ملكاً يدعى ساليتيس ، وكان مقره منف ، ففرض الضرائب على مصر العليا والسفلى ، وكان يخلف وراءه حاميات فى الأماكن المهمة ... ».

وقد ظلت النصوص التاريخية المصرية تنعت الهكسوس بكل ما هو حقير حتى بعد طردهم من مصر ، فيصف أحد نصوص الأسرة الثامنة عشرة – من عهد الملكة « حتشبسوت » –

وجود الهكسوس فى مصر بأنهم كانوا يحطمون ويخربون معابد الآلهة ويحكمون بدون رغبة المعبود رع الذى كان يكرهم ، وأن الأرض قد محت آثار أقدامهم بعد أن طردوا. وتشير بردية ساليه رقم ١ – التى يعود تاريخها إلى عهد الأسرة التاسعة عشرة – إلى أن حكم الهكسوس كان بمثابة محنة رهيبة حلت بمصر وأن ملوكهم لم يحترموا من بين المعبودات المصرية سوى " سوتخ " إله الشر الذى عملوا على عبادته ورفع شأنه بشكل مستفز للمصريين.

ويبدو أن دخول الهكسوس مصر قد أتخذ صورة التسلل إلى حدود الدلتا الشرقية بأعداد قليلة وفى فترات متباعدة ، وازداد هذا التسلل بمرور الزمن بسبب الضغط الذى مثلته الشعوب الأجنبية على سوريا والذى قد وقع خلال تلك الفترات المتسمة بالفوضى والاضطراب التى ضعفت فيها الحكومة المركزية المصرية والتى لم تعد بقادرة على حماية الحدود الشرقية .. واستمر الحال هكذا حتى جاء وقت حاول فيه الهكسوس فرض سيطرتهم بالقوة على المصريين فوقع الصدام العنيف بين الغزاة الأسيويين وأهل البلاد ، فقام الهكسوس بإحراق المدن وتدمير المعابد واستعراض القوة ، وأنتهى الأمر باستيلائهم على العاصمة المصرية القديمة منف وأصبحت لهم الكلمة العليا فى حكم مصر .. ويرى الكثير من المؤرخين أن التسلل الأسيوى الذى قام به الغزاة الهكسوس والذى فشل ملوك الأسرة الثالثة عشرة فى ايقاف زحفه قد أعقبه صدام حربى عنيف بين الغزاة وبين المصريين قبل نجاح الغزاة فى فرض سيطرتهم واستيلائهم على العاصمة منف ، وقد انتهى هذا الصدام بهزيمة منكرة للمصريين الذين واجهوا للمرة الأولى فى تاريخهم شعوب محاربة بهذا القدر من الغلظة والشراسة ، حيث امتلك الهكسوس عدة وعتاداً حربياً عظيماً لا قبل للمصريين به ، وذلك بفضل استخدامهم للأسلحة البرونزية ومعرفتهم استخدام الخيول والعربات (المركبات) الحربية التى أدخلت إلى آسيا بواسطة الآريين منذ قرنين أو ثلاثة من قبل ، وتعلم استخدامها عنهم الهكسوس .. ولنا أن ندرك مدى فزع المصريين وجزعهم ، عندما كان عليهم أن يواجهوا لأول مرة هذه العربات المقاتلة.

ولقد قام الهكسوس بالتمركز فى شرق الدلتا واتخذوا من مدينة أواريس عاصمة لملكهم بعد أن أصبحت الدلتا ومصر الوسطى تحت حكمهم المباشر ، واكتفوا بفرض الجزية على مصر العليا (الصعيد) تاركين الإدارة المحلية المصرية كما كانت عليه قبل الغزو .. ومن ناحية أخرى كان الكوشيون قد استغلوا فرصة انهيار المملكة المصرية وبعد ملك الهكسوس عنهم

وتمركزه فى الدلتا لكى يؤسسوا لأنفسهم مملكة كوشية مستقلة فى جنوب الجندل الأول اتخذت من كرما عاصمة لها .. وهكذا انقسمت مصر إلى ثلاث كيانات سياسية بعد غزو الهكسوس المهين خلال تلك الحقبة المؤلمة والعصيبة من تاريخها.

سقنن رع وبداية النضال ..

من المؤكد أن غزو الهكسوس قد أصاب المصريين بصدمة بالغة لم يكن من السهل تجاوزها بين عشية وضحاها .. فهاهى مصر العظيمة تسقط أمام الغزو الأجنبى للمرة الأولى فى تاريخها على يد عدو همجى وشرس عمل على إهانة المصريين فى كبريائهم الوطنى وفى مشاعرهم الدينية كذلك ، وكان على الأمة المصرية أن تمتص هذه الصدمة المؤلمة حتى تجد طريقاً للنصر والتحرير واستعادة التراب الوطنى والكرامة المصرية مرة أخرى .. وفى هذا الصدد يقول عالم المصريات الفرنسى الشهير « جاستون ماسبيرو » : « إن هذه الأمة المصرية العتيقة دون سائر الأمم والشعوب تدل طبائع ابنائها كما تدل آثارها على البقاء والخلود .. فكم من مرة اجتاحها الغاصبون الأقوياء وظنوا أنهم حولوا أرضها رماداً تذروه الرياح ، وظنوا أنهم قلبوا مدنها وقراها انقاضا فوق سكانها .. فإذ بأولئك السكان ينفضون عنهم ما ظنه الغاصبون فناءًا ويبعثون من تحت الانقاض ليعيدوا البناء والكفاح من جديد »..

بعد أن فرض الهكسوس سيطرتهم على مصر تكونت منهم الأسرتين الخامسة عشرة والسادسة عشرة فى تاريخ مصر القديمة ، وتمكنوا من انهاء حكم الأسرة الثالثة عشرة المصرية قرابة عام ١٦٥٠ ق. م ، وكذلك انهاء حكم الأسرة الرابعة عشرة المصرية التى كانت تتمركز فى خويس بغرب الدلتا بعد الاستيلاء على ما تبقى من نفوذ لها هناك قرابة عام ١٦٠٣ ق. م. وفى هذه الأثناء بدأ يظهر فى الجنوب فرع جديد من الأمراء الطيبيين أشار إليهم بعض المؤرخين القدامى مثل « أفريكانوس » و« مانيتو » على أنهم شكلوا جذور الأسرة السابعة عشرة المصرية ، ويبدو أن منطقة نفوذ أمراء طيبة لم تتجاوز الأقاليم الثمانية الأولى من مصر العليا ، والتى تمتد من إليفنتين فى الجنوب وإلى أبيدوس فى الشمال .. وبمرور الوقت بدأ أمراء طيبة فى العمل على توطيد نفوذهم السياسى فى الجنوب وعلى احياء القومية المصرية ومناهضة تواجد المحتل الأسيوى القابع فى شرق الدلتا ، فبدأوا فى استفزاز الهكسوس

واعتبروا أنفسهم حكاماً فى أقاليمهم ، وفعلوا كما فعل ملوك مصر من قبلهم ، حيث وضعوا أسماءهم داخل خراطيش ملكية ، وحملوا الألقاب التقليدية التى تدل على أنهم ملوك للوجهين القبلى والبحرى .. وتشير الوثائق التاريخية إلى أن حاكم طيبة الملك « سقنن رع تاعو الثانى » هو أول من عمل على جمع كلمة حكام الأقاليم المصرية فى الجنوب من أجل مواجهة الهكسوس وقد شاءت الأقدار أن يطلق هذا الملك الباسل شرارة حرب التحرير ضد الغزاة الأسيويين.

ويبدو أن هذا الحراك الوطنى قد أثار ملك الهكسوس « أبيبى » (أبوفيس) ، والذى رأى أنه عليه القيام برد فعل مضاد للطيبيين قبل أن يستفحل الشعور الوطنى المناهض لوجود الهكسوس فى مصر والذى كانت تقوده طيبة ، فتشير بردية ساليه رقم ١ – التى كتبت خلال عصر الأسرة التاسعة عشرة أى بعد خروج الهكسوس من مصر بعدة قرون – إلى أن « أبيبى » (أبوفيس) قد بدأ التحرش بالطيبيين واستفزازهم فى مشاعرهم الدينية حتى ينجر الملك الطيبى إلى حرب لم يستكمل عدته لها. ومن ثم فقد أرسل الملك الهكسوسى مبعوثيه إلى طيبة الذين حملوا رسالة للملك المصرى تحمل اتهاماً سخيفاً مؤداه أن فرس النهر فى طيبة ، والتى كانت على مبعدة أربعمائة ميل إلى الجنوب من مقره فى أواريس ، كان يصدر خواراً فى الليل يمنعه من النوم ، وطلب منه أن يعمل على أن يطرد فرس النهر الذى فى حوش مدينته (طيبة) لأنه يقضى مضجعه نهاراً وليلاً ، وأن الضوضاء تؤذى أذنه .. وعلى الرغم من هذا فقد تظاهر « سقنن رع » بالاقتناع وأمر بإكرام الرسل القادمين من « أبوفيس » ، وأن تقدم لهم الأشياء الطيبة ، وأبلغ الرسل أن يبلغوا سيدهم باستجابته لمطالبهم. وما كاد رسل الهكسوس يعودون إلى أواريس ، إلا ويستدعى « سقنن رع » مستشاريه ويحيطهم علما بالأمر ، ويطلب منهم النصح والمشورة ، إلا أنهم سكتوا جميعاً وينقطع نص البردية عند هذه النقطة.

ويرى غالبية المؤرخين أن هذا الاستفزاز فى المشاعر الوطنية بالإضافة إلى الاختلاف الدينى المذهبى بين الطيبيين والهكسوس قد كان له أثره العميق فى اندلاع الحرب بين الطرفين ، فقد جعل « أبيبى » (أبوفيس) ملك الهكسوس من سوتخ إلهه الرئيس وجعله فوق كافة الآلهة المصرية الأخرى كما طلب من الملك المصرى عبادته ، بينما حرص « سقنن رع » على أن يكون آمون إله طيبة رب الأرباب جميعاً ، ولم يكتف الطيبيون بذلك بل بدأوا فى إحياء

طقوس فرس النهر فى بركتها أو قناتها ، وكفلت تلك الشعيرة بين أشياء أخرى سلامة الملكية المصرية ، وكان ذلك الأمر ضاراً بالهكسوس ، نظرا لكون فرس النهر صورة لإلههم الرئيس سوتخ .. ويبدو أن « سقنن رع » قد قدر له أن يكون الشهيد الأول فى معركة مصر ضد الغزاة كما قدر له أن يشعل الشرارة الأولى لحرب التحرير المجيدة ، حيث تدل مومياءه المحفوظة الآن فى حجرة المومياوات بالمتحف المصرى بالقاهرة – والتى نرى فيها أكثر من جرح فى الصدر والرأس – على الدور البطولى الباسل الذى قام به فى معركة التحرير وعلى أنه قد مات متأثراً بجراحه فى ساحة الوغى ، كما يبدو أنه قد مات وهو ما يزال بعد فى شرخ الشباب لم يتجاوز الثلاثين من عمره.

كامس والزحف المقدس ..

بعد استشهاد « سقنن رع » حمل لواء التحرير ابنه « واج خبر رع كامس » ، وحفظت لنا أخبار حروبه على لوحتين من الكرنك أشهرهما لوحته الثانية التى كشف عنها عام ١٩٥٤م ، وكذلك على لوح كارنارفون رقم ١ الذى كشف عنه عام ١٩٠٨م وكان مكتوبا بالخط الهيراطيقى وهو يروى المراحل الأولى من الصراع .. وجاء فى بداية لوح كارنارفون : « فى العام الثالث للملك القوى فى طيبة ، كامس ، الذى عينه رع ملكاً حقيقياً ومنحه القوة فى رضا تام ، تحدث جلالته فى قصره إلى مجمع الكبراء الذين فى حاشيته قائلاً : أريد أن أعرف مدى قوتى وسلطانى ، فهناك فى أواريس يجلس ملك أجنبى ، وهناك فى كوش يحكم ملك آخر ، بينما أجلس أنا بينهما ، هنا فى طيبة ، وكل منهما يقتسم مصر معى . انظروا ، فإنكم ستجدون الأسيويين قد حكموا مصر حتى الأشمونين ، لقد هدموا كل الأبنية وخربوها ، ولكننى سأهاجم ملكهم ، وأبقر بطنه بيدى ، وكل أملى أن أخلص مصر من الأسيويين ، وأطردهم شر طردة ». وقد رد رجال الحاشية على الملك « كامس » بقولهم : « إذا كان الهكسوس قد توغلوا فى مصر حتى الأشمونين ، وإذا كانوا يدعون كذباً بأننا نناوشهم ، فإننا نعيش فى سلام فى منطقتنا ، ولازالت أسوان حصناً قوياً لنا ، ونحن نحكم من أسوان حتى الأشمونين ، ونمتلك أحسن مناطق مصر ، ثم أن ماشيتنا لا تزال ترعى فى كل أجزاء مصر فى أمان ، دعهم يا صاحب

الجلالة ، فهم يحكمون فى الشمال ، ونحن نحكم فى الجنوب. أما إذا اعتدى علينا أحد ، فإننا لن ندخر وسعاً فى مقاومته " .. وهنا غضب الملك غضباً شديداً وقال لهم : "سأقاتل الهكسوس حتى يقسم كل مصرى باسمى ، إننى أريد أن يتحدث كل منهم عنى قائلاً هاهو كامس محرر مصر ".

ومن خلال المصادر التاريخية التى تحدثت عن حروب وحملات " كامس " ضد الهكسوس (لوح كارنارفون رقم ١ ولوحتيه من الكرنك) ، تبين أن " كامس " قد بدأ حملاته الحربية ضد الهكسوس فى العام الثالث من حكمه بعد أن جمع جيشاً مكوناً من عدة فرق ، حيث أبحر من طيبة عبر النيل إلى الشمال تحت راية الإله الطيبى آمون ووصل إلى بلدة نفروسى الواقعة شمال القوصية وكانت تقبع بها إحدى الحاميات المصرية الموالية للهكسوس ، وتمكن " كامس " بواسطة قوات المجاى فى جيشه من الاستيلاء على هذه الحامية الهامة .. ووصل " كامس " فى زحفه شمالا حتى الأشمونين وتمكن من طرد الهكسوس من مصر الوسطى ، وبذلك أصبحت مصر العليا والوسطى تحت سلطة " كامس " ، وعلى ذلك فقد أرتد الهكسوس إلى الشمال حيث تحصنوا بعاصمتهم أواريس.

وقد تحدثت لوحة " كامس " الثانية من الكرنك عن قيامه بالهجوم على عاصمة الهكسوس أواريس بشرق الدلتا ، ويشير النص إلى وصول الأسطول المصرى إلى مقاطعة أواريس ، حيث تذكر النصوص أن " كامس " حامى مصر قد بدأ فى حصار الهكسوس إقتصادياً ، بأن قطع الامدادات التى كانت تصلهم عبر فروع النيل ، وأحرز عليهم النصر فى عدد من المواقع النهرية .. ووفقاً لما ورد فى هذه اللوحة ، وبعد التحرك شمال نفروسى ، قام جنود " كامس " بإلقاء القبض على أحد موظفى بلاط ملك الهكسوس ، كان يحمل رسالة من ملك الهكسوس " عا أوسر رع أبيبى " (أبوفيس) فى أواريس إلى حليفه حاكم كوش فى الجنوب ، حيث طلب منه الدعم والمساعدة والقيام بهجوم مشترك ضد الطيبيين للقضاء عليهم. ويبدو أن " كامس " قد أرسل فرقة من قوات جيشه لاحتلال الواحات البحرية فى الصحراء الغربية والتى كانت من أهم مراكز الطريق الصحراوى بين الشمال والجنوب ، ليكون فى مأمن من أى مراسلات أو اتصالات تقع بين أعدائه الهكسوس فى الشمال والكوشيين فى الجنوب .. وفى أعقاب هذا قام " كامس " بالابحار جنوباً نحو طيبة عبر النيل ليقوم بالاحتفال بنصره العسكرى الكبير على

الهكسوس بعد أن نجح فى دفع الحدود بينه وبين عدوه نحو الشمال من القوصية التى تسبق الأشمونين فى مصر الوسطى ، التى أصبحت بمثابة الحد الفاصل بين الأسرة السابعة عشرة الطيبية فى الجنوب والأسرة الخامسة عشرة الهكسوسية فى الشمال.

ويختلف المؤرخون فى نتائج حروب « كامس » ، فهناك من يرى أنها قد دفعت الحدود بين الهكسوس وبين أمراء طيبة إلى الشمال ، حتى أطفيح عند مدخل الفيوم ، بينما يرى آخرون أنه قد وصل إلى جدران أواريس نفسها. ومع ذلك فإنه مما لا شك فيه قد تمكن من تحرير مصر الوسطى نهائياً من الهكسوس ، وأن حملاته فى الدلتا قد أجهضت نفوذ الهكسوس فيها ، وأضعفت من جيوشهم ، مما ساعد على وصول القوات المصرية إلى عاصمة الهكسوس أواريس .. ومات « كامس » بعد حكم قصير ، حيث وضع جسده فى تابوت بسيط للغاية ، وأشرف على دفنه أخوه « أحمس » ، وقد يشير ذلك إلى أنه قد مات فجأة ، ومن ثم فلم يمكن تجهيز الأثاث الجنائزى اللائق به وبمكانته لأن مصر كانت لا تزال فى حربها الشرسة ضد الهكسوس.

أحمس وملحمة التحرير ..

أتبع الملك « أحمس الأول » سياسة جديدة فى حرب المصريين ضد الهكسوس ، تعتمد على التعبئة العامة وتجنيد كل الرجال ، ثم صبغ حكمه بالصبغة العسكرية ، وساعده على ذلك أن المصريين كانوا قد تذوقوا طعم الحروب ولمسوا قيمة النضال واستفادوا من حروب سلفيه ، فتمرسوا على استعمال كل الأسلحة الجديدة التى جلبها الهكسوس معهم إلى مصر وتعلموا طرق الكفاح والنضال .. وعاصرت « أحمس الأول » ثورة اجتماعية تهدف إلى تمجيد الجندية ، فلقد عرف المصريون فى ذلك الوقت أن الحروب تعود على المنتصر بالغنائم الكثيرة ، وأن فى ميادينها متسعا لأعمال البطولة ، وأن الحاكم يعترف بها ويكافئ عليها ، مهما كانت الطبقة التى ينتمى إليها المحارب ، فسارع أفراد الطبقة الوسطى إلى الالتحاق بالخدمة العسكرية ، نظراً لأن الجندية ترفع من مركزهم الأدبى بترقيتهم فى الجيش .. وهكذا أندفع الشعب المصرى فى حماسة تفوق الوصف فى التيار العسكرى ، حتى أمراء الدولة نفسها تسابقوا إلى الانخراط فى

الجندية بهدف الحصول على الأوسمة والألقاب .. وقد أشعل « أحمس الأول » هذه الروح الجديدة ، فتجمعت حوله أفواج الشعب على هدف واحد يتمثل فى تطهير مصر من الهكسوس تطهيراً كاملاً من أى أثر لهذا الاحتلال الأجنبى البغيض.

والتقرير الوحيد المعاصر عن طرد الهكسوس من مصر منقوش على جدران مقبرة أحد أشهر قواد الملك « أحمس الأول » وهو القائد « أحمس بن إبانا » الموجودة بالكاب (٢٠ كم شمال إدفو) ، ولقد تحدث من خلال نصوصه عن حصار المصريين لعاصمة الهكسوس حوت وعرت (أواريس) ، وأشار إلى هزيمة الهكسوس النهائية بقوله : « لقد نهبوا أواريس ، لقد أحضرت غنيمة من هناك ، رجل وثلاث نساء ، المجموع أربعة رؤوس ، لقد منحنى إياهم جلالته لأتخذهم عبيداً ». كما ذكر أن الفرعون قد قام بالهجوم على أواريس ثلاث مرات أثناء حصاره لها قبل أن تسقط المدينة فى أيدى المصريين أثناء الهجوم الرابع .. ويبدو أن حصار أواريس قد وقع فى العام الثامن من حكم الملك « أحمس الأول ».

ويرى جانب كبير من المؤرخين أن الجيش المصرى فى مسيرة التحرير المقدسة قد تحرك عبر الطريق البرى لسبب استراتيجى سواء كانت الدلتا مأمونة أم غير مأمونة ، حيث يبدو أن الملك « أحمس الأول » قد سعى لأثر المفاجأة ، ولهذا قطع الطريق بسرعة إلى اليابسة وبدأت عمليات الحصار على أواريس مباشرة ، وبعد ذلك لم يتأخر الأسطول البحرى فى الوصول. وأغلب الظن أن الجيش المصرى بقيادة « أحمس » قد أستولى على العاصمة المصرية التليدة منف وهو يقوم بزحفه نحو الشمال إلى عاصمة الهكسوس .. ولقد منحتنا بردية رايند الحسابية معلومات مهمة عن الاستراتيجية الحربية التى قد أتبعها « أحمس الأول » فى الهجوم على الدلتا أثناء حرب التحرير. فعقب استيلائه على هليوبوليس (الواقعة شمالى منف) ، تحرك الفرعون بقواته إلى أقصى شرق الدلتا للاستيلاء على قلعة ثارو الاستراتيجية المهمة ، والتى كانت بمثابة أقوى وأهم التحصينات الموجودة على طريق حورس الحربى الممتد بين مصر وكنعان (فلسطين) ، متحاشياً بهذا الهجوم على أواريس عاصمة الهكسوس. ومن ثم فباستيلاء الفرعون على ثارو ، تمكن من قطع الطريق بين كنعان وأواريس ، مانعاً عاصمة الهكسوس من الحصول على أى إمدادات أو مساعدات قد تصلها فى المستقبل من كنعان أثناء حصاره

لها ، ثم أعقب هذا كما تشير بقية المصادر المصرية استيلاء القوات المصرية على عاصمة الهكسوس أواريس. ومن ثم فقد كان يبدو واضحاً أن المصريين قد قاموا بمحاصرة عاصمة الهكسوس من الشمال الشرقى والجنوب الغربى باستيلائهم على ثارو وهليوبوليس.

وبعد أن تم طردهم من مصر تحصن الهكسوس فى شاروهين ، وهو موقع فى جنوب غرب فلسطين ، وعندما وصل الجيش المصرى إلى شاروهين وجدوا أن الهكسوس قد تحصنوا بداخلها ، وأعدوا العدة لأن يصمدوا كثيرا فى وجه المصريين ، بل أنهم كانوا يطمعون فى الانتصار على الجيش المصرى وإرجاعه إلى الدلتا مهزوماً ، والانتقام لما فقدوه فى عاصمتهم أواريس ، إلا أن الملك « أحمس الأول » وجنود الجيش المصرى كانوا أشد بأساً وأقوى عزيمة ، وقد ضربوا الحصار مدة ثلاث سنوات حول شاروهين ، حتى تم لهم النصر وتم إجلاء الغزاة الهكسوس عنها وتشتيتهم إلى داخل أراضى فلسطين وسوريا .. وبسقوط حصن شاروهين آخر معاقل الهكسوس على الحدود المصرية الشرقية مع فلسطين فى أيدى الجيش المصرى بعد هذا الحصار الطويل ، يكون الفرعون « أحمس الأول » قد أنجز مهمة تأمين الحدود المصرية ، ونجح فى وضع أول لبنة فى صرح الإمبراطورية المصرية فى آسيا.

ولقد سجل « أحمس بن نخبت » أحد قواد الملك « أحمس » على جدران مقبرته بالكاب أنه قد تابع الملك « أحمس الأول » فى حروبه ضد الهكسوس حتى جاهى ، وهو مصطلح جغرافى أثبتت التقارير العسكرية فى عهد خلفاء « أحمس الأول » أنه كان يطلق على المنطقة الممتدة على الساحل بين كنعان (فلسطين) ولبنان ، وقد نجح الفرعون فى إحراز نصر كبير عليهم هناك. وقد يشير ذلك إلى أن الملك « أحمس الأول » أخذ فى مطاردة الهكسوس بعد شاروهين حتى لبنان ، ويعنى ذلك إجلاؤهم عن المناطق التى سكنوها أو لجأوا إليها ، وسكنها أقوام ينتمون إلى جنسهم ، وأنه لم يطهر مصر منهم فحسب ، بل طهر كذلك فلسطين وسوريا حتى يغدو بمأمن من غدرهم ومعاودتهم العدوان .. ولقد سعى الملك « أحمس الأول » من وراء انتصاراته العسكرية فى آسيا إلى فتح الطريق أمام القوات العسكرية البرية والبحرية المصرية لتأسيس أول قاعدة عسكرية مصرية فى بلاد جاهى ، لتكون بمثابة نقطة دفاع متقدمة إذا ما فكر الهكسوس فى إعادة تنظيم أنفسهم وحاولوا غزو أو مجرد الإغارة على الحدود المصرية مرة أخرى.

أبطال التحرير ..

لم يكن تحرير مصر من دنس الغزاة الهكسوس أمراً قد تم بإرادة فردية ، بل إن كل انجاز أو اعجاز قد تم تحقيقه فى تاريخ مصر القديمة كان يحدث بإرادة وعزيمة تحركها دماء وصمود شعب مصر العظيم .. ومن المؤكد أن المصادر التاريخية قد ضنت علينا باسماء وسير عشرات الشهداء الأبرار والرجال البواسل الذين خاضوا معارك التحرير المجيدة ضد الغزاة وبذلوا فيها كل غال ونفيس من أجل استعادة الأرض والكرامة المصرية ، كما أنه قد دأب المؤرخون دائماً عند سرد الانتصارات على نسب الفضل للملوك دون الاعتناء كثيراً بالشعب الذى استجاب لإرادة ملوكه البواسل ، على الرغم من أن الحاكم والشعب قد شكلا معاً ملحمة التحرير الخالدة فى صفحات التاريخ.

وهنا يتجلى لنا فى نضال مصر ضد الهكسوس اثنان من القادة العسكريين البواسل اللذان سجلا اسميهما بحروف من نور فى تاريخ نضال الأمة المصرية ضد الغزاة عبر التاريخ ، وهما القائد « أحمس بن إبانا » والقائد « أحمس بن نخبت » وكلاهما من أبناء مدينة الكاب بأسوان .. و« أحمس بن إبانا » هو أحد أشهر وأهم قواد الجيش المصرى خلال مطلع الأسرة الثامنة عشرة ، وقد قدم خدماته العسكرية فى عهود الملوك الثلاثة الأوائل للأسرة الثامنة عشرة « أحمس الأول » و« أمنحتب الأول » و« تحوتمس الأول » ، وترك نصوص سيرته الذاتية منقوشة على جدران مقبرته بمسقط رأسه ببلدة نخب (الكاب الحالية بأسوان) ، والتى منحتنا معلومات تاريخية بالغة الأهمية عن أحداث حرب التحرير ضد الهكسوس وعن تاريخ مصر خلال نهاية الأسرة السابعة عشرة وبداية الأسرة الثامنة عشرة. ذكر « أحمس بن إبانا » من خلال نصوص سيرته الذاتية أن والده كان جندياً يدعى « بابا » ، وقد قدم هذا الوالد خدماته العسكرية فى عهد الملك « سقنن رع تاعو الثانى » سلف الملك « أحمس الأول » ، أثناء الحملات الحربية الأولى التى خاضها المصريون ضد الغزاة الهكسوس ، أما عن والدته والتى نسب إليها فقد كانت تدعى « إبانا ». وقد بدأ « أحمس بن إبانا » حياته العسكرية شاباً فى عهد الملك « أحمس الأول » قبل أن يتزوج ، حين عمل جندياً فى السفينة المسماة « الثور الوحشى » ، وأشارت نصوصه إلى بطولاته العسكرية المختلفة التى قدمها فى تاريخه ، حيث

ذكر أنه قد خاض القتال والمعارك فى البر والنهر ، وشارك فى معارك حرب التحرير ضد الهكسوس تحت قيادة الملك « أحمس الأول » كواحداً من رجال الحرس الملكى للفرعون ، وعمل فى السفينة الحربية التى كان يقودها الملك المسماة « الظهور فى منف » ، كذلك ذكر أنه قد خاض القتال ضد الغزاة الهكسوس فى معقلهم وعاصمتهم أواريس بشرق الدلتا حيث قام بقتل اثنين من الأعداء ومنح ذهب الشجاعة مرتين ، ومنحه الفرعون بعض العبيد والأسلاب عقب الاستيلاء على أواريس. كما تواجد ذلك القائد العسكرى الشجاع فى الحصار الطويل الذى ضربه المصريون حول مدينة شاروهين بجنوبى كنعان (فلسطين) ، والتى لجأ إليها الهكسوس بعد طردهم من مصر ، وقد أبلى القائد « أحمس بن إبانا » فى تلك الحرب بلاءاً حسناً .. وبالإضافة إلى ذلك فقد شارك القائد « أحمس بن إبانا » فى حروب الملك « أحمس الأول » فى بلاد النوبة (كوش) ، حيث ذكر من خلال نصوص مقبرته الحملات الحربية الثلاث التى قام بها الفرعون هناك. وعقب وفاة الملك « أحمس الأول » شارك « أحمس بن إبانا » فى حملات الملك « أمنحتب الأول » على بلاد النوبة ، ومنح الذهب وبعض العبيد كمكافئة بسبب شجاعته فى القتال ، وفى عهد الملك « تحوتمس الأول » شارك « أحمس » فى الحملة البحرية ضد القبائل النوبية فى وادى النيل ، ورقى أثناء هذه الحملة إلى رتبة « رئيس البحارة » ، كما شارك فى حملة الفرعون الأسيوية على نهرين والتى بلغت نهر الفرات .. والجدير بالذكر أن القائد « أحمس بن إبانا » قد نال تقدير الملك « أحمس الأول » ، فأنعم عليه بمنحه ذهب الشجاعة فى سبعة مناسبات ، كما أغدق عليه عدة أفدنة من الأرض الزراعية ، فضلاً عن تسعة عشرة من الرقيق ، تقديراً لشجاعته وبطولاته العسكرية التى قدمها خلال خدمته بالجيش المصرى. وترجع أهمية نصوص القائد « أحمس بن إبانا » – الموجودة فى مقبرته بالكاب – إلى أنها المصدر الوحيد والمعاصر للمعارك النهائية لطرد الهكسوس من مصر على يد الملك « أحمس الأول » ، بالإضافة إلى نصوص مقبرة القائد « أحمس بن نخبت » ، حيث أن التسجيلات الملكية لهذه الفترة التاريخية الهامة قد تلاشت.

أما عن القائد « أحمس بن نخبت » فقد بدأ خدماته العسكرية فى عهد مؤسس الأسرة الثامنة عشرة الملك « أحمس الأول » واستمرت مشاركاته فى الحملات الحربية للجيش المصرى حتى عهد الملك « تحوتمس الثالث » ، كما كان أحد نبلاء نخب (الكاب الحالية) مثله مثل القائد

العسكرى الشهير والمعاصر لـه « أحمس بن إبانـا » .. ولقد سجلت كذلك على جدران مقبرتـه بالكـاب النصوص المتعلقة بأحداث حرب التحرير ضد الهكسوس ، وقد ذكر من خلال هذه النصوص دوره ومشاركته فى حملات الملك لمطاردة الغزاة الأسيويين ، وذكر قيام الملك « أحمس الأول » بحملة على جاهى بلبنان ، حيث لم يتم ذكر هذه الحملة الحربية فى أى مصدر تاريخى آخر .. استمر تواجد القائد العسكرى « أحمس بن نخبت » فى صفوف الجيش المصرى خلال عهد الملك « أمنحتب الأول » حيث خاض القتال معه فى كوش ، وكذلك الملك « تحوتمس الأول » حيث خاض القتال معه فى كوش ونهرين ، ولقد ذهب مع الملك « تحوتمس الثانى » فى حملة حربية ضد بدو الشاسو .. ولقد تبين من خلال نصوص السيرة الذاتية للقائد « أحمس بن نخبت » أنـه قد نـال الكثير من التكريم والتقدير أثناء عملـه العسكرى من قبل ملوك مصر المحاربين ، حيث أعطى الكثير من الأنواط العسكرية المصنوعة من الذهب وكذلك الحلى والأسلحة الذهبية بسبب شجاعته وبطولاته العسكرية التى قدمها فى ساحات القتال.

ولم يغب دور المرأة المصرية عن النضال فى حرب التحرير ، وقد بدا هذا الدور واضحا فى شخص الملكة العظيمة « إعح حتب » زوجة الملك « سقنن رع » وأم الملكين « كامس » و« أحمس الأول » ، ويدل على ذلك نص على لوحة حجرية عثر عليها أمام الصرح الثامن بالكرنك يبدأ بألقاب الملك « أحمس » وأعماله ، ثم تأتى بعد ذلك فقرة خاصة بأمه الملكة « إعح حتب » يأمر فيها الجميع بتمجيدها كالتالى : « امدحو سيدة الأرض ، سيدة الحاونبو (جزر البحر المتوسط) ، زائعة الصيت فى كل بلد أجنبى ، هى التى تضع الخطط للناس ، زوج الملك ، أخت الملك ، فلتعش سليمة معافة ، ابنة الملك ، أم الملك ، النبيلة ، العالمة (التى تعرف الأشياء) ، التى ترعى شئون مصر ، والتى اهتمت بأمر جيشها ، ووضعت تحت رعايتها ، هى التى أعادت الهاربين ، وجمعت الفارين ، هى التى هدأت الجنوب ، وأخضعت ثائريه ، زوج الملك ، إعح حتب ، فلتحيا » .. هذه الأوصاف التى خلدها الملك « أحمس الأول » على هذه اللوحة تدل دلالة واضحة على الدور الكبير الذى لعبته أمه فى صراع مصر ضد الغزاة الهكسوس ، فهى القوة التى ساعدت على خلق الروح الوطنية واشعال نارها ، وهى الروح التى بثت فى المصريين الشجاعة ، فدفعتهم لأن يهبوا دفعة واحدة يطالبون بالحرية والاستقلال وطرد الغزاة من البلاد .. ولقد ظلت « إعح حتب » تكافح مع زوجها إلى أن قتل فى

معركة الشرف ، فدفعها ذلك إلى أن تحمل العبء فساعدت ابنها « كامس » بكل ما أوتيت من قوة ، ثم جاء من بعده « أحمس » الذى أخذ على عاتقه مهمة تخليص مصر من براثن المحتلين ، ليعيد إليها كرامتها المسلوبة ويزيح عنها ما لحق بها من هوان.

فجر جديد ..

وهكذا بدأت مصر حقبة جديدة ومجيدة من تاريخها بعد تحرير الأرض ودحر المحتلين الهكسوس واستئصال شأفتهم من صفحات التاريخ .. واعتبر الملك « أحمس الأول » بطل التحرير من قبل المؤرخين بل ومن قبل المصريين القدامى أنفسهم قائداً لأمة منتصرة ولأسرة حاكمة جديدة هى الأسرة الثامنة عشرة على الرغم من ارتباطه بالأسرة السابعة عشرة ، إلا أن انتصاره التاريخى الفريد قد جعل المصريين فى نصوصهم التاريخية وكذلك المؤرخ المصرى « مانيتو » يضعونه على رأس الأسرة الثامنة عشرة .. وعرفت تلك الحقبة الجديدة والفريدة من تاريخ مصر باسم عصر الدولة الحديثة أو عصر الإمبراطورية المصرية ، والتى بدأت تاريخياً ببداية عهد الملك « أحمس الأول » عام ١٥٥٠ ق. م وسوف تستمر حتى عام ١٠٦٩ ق. م .. ويمكننا القول أن « أحمس الأول » كان بمثابة الأب الروحى للإمبراطورية المصرية فى منطقة الشرق الأدنى والتى أفضل أن أطلق عليها إمبراطورية الشمس ، وتجدر الملاحظة أن « أحمس الأول » فى حربه مع الهكسوس قد حرص وبكل إصرار وتصميم على محوهم وإبادتهم وليس على تحرير تراب مصر من دنسهم فحسب ، ويدل على هذا إصراره على حصارهم فى شاروهين بجنوب كنعان (فلسطين) ومطاردتهم حتى منطقة جاهى الممتدة على سواحل بلاد الشام ، حتى أن ذكرهم فى صفحات التاريخ من خلال النصوص المصرية فى الفترات التى ستعقب عهده سيتلاشى تدريجياً إلى أن يتحول لمجرد ذكرى لشعب مغتصب محتل أسقطته مصر الخالدة كنانة الله فى أرضه !

* * * * *

المراجـع

- Gardiner, A.H., 'The Defeat of the Hyksos By Kamose: The Carnarvon tablet, No. 1', JEA 3 (1916).
- Gunn, B. and Gardiner, A.H., 'The Expulsion of the Hyksos', JEA 5 (1918).
- Habachi, L., 'Preliminary Report on Kamose Stela', ASAE 53 (1955).
- Habachi, L., The Second Stela of Kamose, and his Struggle against the Hyksos Ruler and his Capital, Glückstadt (1972).
- Hayes, W.C., 'Egypt from the Death of Ammenmes III to Seqenenra II', CAH, Vol. II, Cambridge (1962).
- Montet, P., Le Drame d' Avaris, Paris (1940).
- Redford, D.B., History and Chronology of the Eighteenth Dynasty of Egypt, Toronto (1967).
- Redford, D.B., History and Chronology of Seventeenth Dynasty of Egypt, Toronto (1967).
- Ryholt, K., The Political Situation in Egypt during the Second Intermediate Period, c. 1800-1550 BC., Copenhagen (1997).
- Smith H.S. and Smith, A.L., 'A Reconsideration of the Kamose Texts', ZÄS 103 (1976).
- Stadleman, R., 'Ein Beitrag zum Brief des Hyksos Apophis', MDAIK 20 (1965).
- Stadleman, R., 'Auaris', LÄ I (1975).
- Vandersleyen, C., Les Guerres d' Amosis, fondateur de la XVIII dyanstie, Brussels (1971).
- Vandersleyen, C., 'Ahmose Sohn der Abina', LÄ I (1975).
- Vandersleyen, C., 'Seqenenre', LÄ V (1984).